التعددية الدينية عند شيخ صوفية القرن العشرين:

وقفة مع كتاب "الأجوبة العشرة" للشيخ أحمد العلاوي

الشيخ قاسمي إدريس

الرئيس الشرفي لجمعية سيدي عبد الرحمن الثعالبي لإحياء التراث

ملخص :

منذ تولى الشيخ العلاوي الخلافة الروحية سنة 1909 عند وفاة شيخه البوزيدي، إلا وهو يناضل ويكافح ويجاهد ويصالح ويكابد ويسعى بكل الجهود ويستعمل كل الوسائل في زرع الأخوة والسلم والسلام بين أفراد هذه البشرية، وإن كانت مؤلفاته العديدة ذات أهمية روحية وفلسفية بالغة في عالم معاصر طغت عليه المادة، يبقى كتاب الأجوبة العشرة من أكثر كتبه معاصرة. فقد ورد هذا التأليف كرد عن جملة من الأسئلة وجهت إلى الشيخ من طرف فرنسي اعتنق الإسلام، أهمها هل الإسلام يضمر سوءا لمن سواه من الأمم أم يسمح بالمودة لها ؟ يجيب الشيخ العلاوي على هذه الأسئلة بمهارة كبيرة تدل على إنسانية وتفتح هذا " الحدثي المسلم" كما يصفه أغستان بارك (1936) . ألم يحن الوقت بعد كي يتصالح علماء الجزائر خاصة والعالم الإسلامي عامة مع تراث هذا الرجل العظيم، رائد فلسفة حقوق الإنسان والحوار بين الأديان في العالم الإسلامي؟

الكلمات الرئيسية :

الإسلام – العلاوي – السلام – الجهاد – المودة

مــن أهل المعرفة باللّه الذين تمسكوا بالكتــاب والسنة وكانوا خير هداة للخلــق عامــة وللمغاربة خاصة، حجــة الصوفية والمرشــد الكامل، صاحب العلم والفهــم الشامل، ومجدد الديــن، ومربي السالكين، وتــاج الواصلين، الشيــخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمــي الجزائري. ولد بمستغانم سنــة 1869 وتوفــي بهــا سنة 1934؛ جــزاه اللّه خيــر الجزاء بمــا قدمه لهذه البشرية من عمل ونصح وسلوك وإرشادات وتوجيهات وقيم إنسانية.

فقد كان الشيخ العــلاوي أول من دعا إلى حوار الأديان بالحجة والبيان، وكان بارعــا ماهرا من أهــل الكمال. تولى الخلافة الروحيــة سنة 1909 بعد وفاة شيخه سيدي محمد البوزيدي، ومنذ ذلك العهد إلا وهو يناضل ويكافح ويجاهــد ويصالح ويكابد ويسعى بكل الجهــود ويستعمل كل الوسائل في زرع الأخــوة والسلم والسلام بين أفراد هذه البشرية، دون أن يقصي أحدا أو أن يفرق بين هذا وذاك.

فقــد كان هــم الشيخ الوحيــد وسعيه كلــه زرع المحبة والأمــن والسلام والأخــلاق الإنسانيــة النبيلة في هذه المعمورة. فلم يرغــب بتاتا يوما ما في أن يرغــم أحدا من جنســه أو ممن اتصل به أن يعتنــق الإسلام أو أن يدخل فــي طريقته. وأبلغ دليل علــى سلوكه هذا ما ذكره الدكتور مارسال كاري في مذكرته المطبوعة، معبرا عن إعجابه بالشيخ:

«شعرت منذ أول اتصال به أنني أوجد في حضرة شخصية خارقة للعادة [...] الأمـر الذي فاجأني أول وهلة هـو مشابهته للوجه الذي يُمثل به المسيح غالبا. لباسه المتقارب مع لباس المسيح، الخمار الأبيض الرقيق الذي يغلف وجهـه، حركاته وسكناته... كل شيء يساهم ليؤكد هذه المقاربة [...] ما أثار إعجابـي به خاصة هو عدم محاولتـه دعوتي إلى اعتناق الإسلام. فهو يقدم أفـكاره حيـن أسأله لكنه وكأنه لا يبالي باقتناعي بهـا أم لا. فلم يحاول أبدا دعائي إلـى الإسلام، بل تظاهر مدة طويلة لا مباليا بما اعتقده في الميدان الديني.»

فقـد دفع به تفتحه هذا إلى مباشرة عـدة مشاريع متعلقة بالغرب، منها تشييـد المستشفـى الفرنسي الإسلامي ومسجد باريس الـذي دشنه بنفسه سنـة 1926. كمـا كان رضـي الله عنـه أول من أسـس زاوية بأوروبـا بمدينة باريس، قبل أن ينشئ أحد مريديه من جنسية أمريكية زاوية أخرى بأمريكا وهـي إلى حـد الآن تعمل على منهاجه. مع هذا استسلـم على يده الكثير من الأوروبييـن والمسيحييـن واليهـود والبوذييـن والهندوسيين بـل وحتى من الملحديـن. نذكر منهم غوستاف جوسو (عبـد الكريم) صاحب *طريق الله* ومارتان لينغ (أبو بكر سراج الدين) محافظ مكتبة مخطوطات متحف لندن، وصاحب عدة مؤلفات منها *الشيخ العلاوي: ولي صوفي للقرن العشرين؛ وما هو التصوف؟*؛ *ومحمد: حياته حسب أقدم المصادر*.

بالإضافـة إلـى علاقاته الوطيـدة بغيـر المسلمين، أسـس الشيخ مجلة شهرية بعنوان«*لسان الدين* سنة 1919 يدعو فيها جميع الناس إلى الاتصاف بالأخلاق الإنسانية وزرع المحبة والأخوة فيما بينهم، ونبذ العنف والصراع، والعودة إلـى الحوار والنقاش المفيد بين الأديان وبين الثقافات. مع الدعوة إلـى ضـرورة العمل المشترك إذ كل واحد له ما يفيـد به هذه البشرية. فقد عالـج بواسطة هـذه المجلة عدة مشـاكل وظهر نجمه وأشرقـت شمسه في

البــلاد. كان نصحــه رضي الله عنه للمسلم وغيــر المسلم على حد السواء. مُنعــت المجلــة من طــرف السلطــات الاستعماريــة سنة 1926، لكــن الشيخ لــم ييأســس وأسس نفس السنة أختــا لها، ألا وهي جريــدة *البلاغ الجزائري*. كانت هاتان المجلتان تسديان النصــح والحوار والجهاد والاجتهاد والكفاح والنضــال والاتصال بين أفراد البشرية خاصة وعامة، وتدعوان إلى المحبة والرحمــة. وإن كان همــه فيها لم يتوقف على المحافظــة على الإنسانية، بل اتســع نصحه إلى المحافظة على البيئة والطبيعة والحيوانات وحتى الحيتان فــي البحر. كان يقول في هذا السياق: «حافظوا علــى البحار لا تلوثوها فإن فيها معاشكم ولباسكم». وبهذا المنهج المحمدي الذي نهجه الشيخ استطاع أن يحيــي قلوبا ميتة، ويحرك أجساما عاطلة، وشرف بسلوكه وتربيته نفوسا ذليلة.

سعــى الشيخ مــن جهة أخرى إلــى إنشاء عدد من الجمعيــات، علما منه أنه لا سبيل إلــى التبليغ إلا بواسطتها. ومن أصناف هذه الجمعيات ما اهتم بالتربيــة الروحيــة والسلوكية ومنهــا ما باشر الأعمال الخيريــة. فقد بلغ به الأمــر، فــي سياق العمل الخيــري، إلى أن يطلب من السلطــات الاستعمارية الفرنسية أن تسلمه المحبوسين القصر كي يعيد تربيتهم وسلوكهم. كما أنه كان ينظــم سنويا حفل الطريقة العلاوية بمشاركة عدد من الشخصيات من مختلف الديانات.

نصح وكافــح وجهد واجتهد، نصح بني البشر كلهم وكافح بقلمه المهند الخرافات والانحرافات وكل ما يؤدي إلى خراب الإنسانية ويذهب بالأخلاق الإنسانيــة، فــإذا قلنا الأخــلاق الإنسانيــة نعني بهذا «الأخــلاق المحمدية» التــي قــال فيها النبي ﷺ: «ما بعثت إلا لأتمم مكارم الأخلاق». هذا هو نهج الشيــخ العلاوي، جاهــد بالقلم والــكلام والسلام، ولم يعــرف عنه قط أنه ســب معارضا لــه أو مناوشا عنــه أو مخالفا لرأيه، كان يــرد عليهم بالدليل

والبرهـان والحجة والبيان وبـكلام أهل العلم دون تخصيص أكان مسلما أو غيـر مسلم كل عنده سواء. وجد في السير الحسن، كيف لا وهو القائل: «أنا جئـت من الإحسان». ومـن حرصه على نفع البشر جميعـا أنه ذات يوم كان يؤلف ويكتـب والمرض يهدده فانتبه بعض أصحابـه إليه فرأى العرق يقطر مـن جبينه، فريستـه ترتعد فقال له: «استرح يا سيدي فـإن المرض أنهكك واشتـد بـك» فنظر إلى الناصح وقال له وهو منهمـك في العمل:»كيف تطلب منـي أن أستريـح والإنسانية في خطر عظيم، دعنـي والمرض كل منا يعمل عمله فالمرض يعمل عمله وأنا أعمل عملي».

إضافـة إلى اجتهاده في التأليف في مجـال العلوم الشرعية الإسلامية، تطـرق الشيخ أيضا لبعض العلـوم الفلكية والطبية. وإن كانت هذه المؤلفات ذات أهميـة روحية وفلسفية بالغة في عالم معاصر طغت عليه المادة، يبقى كتـاب *الأجوبة العشرة* الذي نقدم مقتطفات منه في الصفحات التالية، من أكثر كتبه معاصرة. أضف إلى ذلك أنه خلافا لغيره من المؤلفات التي طبعت وترجمـت للغات الغربية، لازال هـذا المخطوط مخزونا فـي مكتبة الزاوية العلاويـة بمستغانم ولم يطبـع بعد. ورد هذا المخطوط كـرد عن جملة من الأسئلة وجهت إلى الشيخ من طرف فرنسي اعتنق الإسلام. من هذه الأسئلة التي لازالت مسايرة للعصر، هل أحكام الإسلام تطابق المدنية العصرية أم لا؟ موقع المـرأة في الإسلام، هل الإسلام يضمر سوءا لمن سواه من الأمم أم يسمـح بالمودة لهـا ؟ يجيب الشيخ العلاوي على هـذه الأسئلة – وخاصة السـؤال المتعلق بحكـم التعددية الدينيـة في الإسلام الـذي نقدمه هنا – بمهـارة كبيرة تدل على إنسانية وتفتح هـذا الرجل العظيم. وإننا على يقين أن لو تصالح علماء اليوم من الجزائريين خاصة والمسلمين عامة مع تراثه وتطرقوا لكتبه وبحثوا في سلوكه لساد الأمن والسلام في العالم كله.

فيما يأتي بعض المقتطفات من كتاب الأجوبة العاشرة للشيخ العلاوي :

«وقد كنت سألتني أيها الصديق فهل الإسلام يضمر سوءا لمن سواه من الأمـم أم يسمح بالمودة والبـرور؟ قبل الجواب أقول لو أن الإسلام اتضحت مقاصـده لأهل العصر الحاضر لسارعت الناس إلى اعتناقه أفواجا حسبما سارعت إليه في أول انتشاره لأن السابقين ليسوا بأسلم مذاق ممن يعاصرنا ولا مانع من ذلك إلا سوء التفاهم ونقل الأخبار على خلاف الحقيقة، حتى أنه لـم يرج في أوروبا ونحوها من معنى الإسلام إلا ما يقضي بالنفور والتحفظ مـن غوائلـه حتى كاد أن يكون عندهم هو عبارة عـن مجتمع غوغاء ديدانها سفـك الدماء ونحوه.وهيهات وتالله مـا أنصفنا الإسلام في مقاصده ولهذا نجد من لا يتقي الله ولا علم له بحقيقة الحال كلما ذكر الإسلام يحمل عليه حملـة منكرة بكل ما فـي وسعه وليس على الإسـلام إلا أن يقول صبر جميل وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أوليـس قد تقرر عند قومكـم أيها الصديق أن لا يحكمـوا على متهم إلا بعد استنطاقه، فلم لا نستنطق الإسلام في مقاصده والحالة أن لسانه الذي هو القرآن العظيم أفصح الألسن ثم نحكم بما يقتضيه الإنصاف ولا نستند فـي ذلك إلـى حكم الغير ممن جرد الإسلام مـن كل فضيلة وألصق بجانبه كل رذيلـة حسدا من عند نفسه. ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾ (التوبة 32) ، ﴿**ولا تكن في ضيق مما يمكرون**﴾ (النمل 70).

فإن الإسلام ثابت الدعائم لا تخفى مبادئه الحسنى وشيمته الغراء على أهـل الاطـلاع والمنصفين من علمـاء أوروبا، وتصريحاتهم فـي مؤلفاتهم أعـدل شاهد. ومن ذلك مـا ذكره الحكيم السيد غوستـاف لوبون في كتابه «تمـدن العـرب» ما نصـه: للإسلام الحـق أن ينسـب لنفسه هـذا الشرف العظيـم وهو كونه أول ديانة أوجـدت بهذا العالم الإقرار الخالص بوحدانية الله. ومن هذه الوحدانية الخالصة نتجت بساطة الدين الإسلامي وفي هذه

البساطـة يجب علينا أن نفتش عن سر قـوة الإسلام. لأنه زيادة على سهولة فهـم تعاليمـه فإن الدين الإسلامي لا يعرض علـى متبعيه ولو واحد من تلك الأسرار الغامضة أو المبادئ المتناقضة الكثيرة الموجودة بالأديان الأخرى والتـي تلطم العقول أي لطم. الإسلام هو عبادة إله واحد وتساوي كل الناس عنـد الله، والمحافظة على فرائض قليلة ثم الجنـة لمن قام بها والنار لمن صـد عنها. فـلا شيء أبين مـن هذا ولا شـيء أبعد منه عـن الالتباس [...] فوضـوح الإسلام بهذه الصـورة المتناهية وأمره بالعدل والإحسان كان حقا سبـب انتشاره بالعالم، فمثل هذه الصفات تبيـن كيف أسلمت تلك الشعوب بعد أن قامت أحقابا على أول دين النصرانية مثل أقباط مصر انخرطت في الدين الإسلامي عندما عرفت تعاليمه العالية، والحال أنه لم يمكن أن نذكر تنثر فرقة واحدة من المحمديين غالبة كانت أو مغلوبة.

وأمـا معاملـة الإسـلام مع من سواه مـن الأمم من جهـة المودة وحسن المعاشـرة فليسـت بخافية حتى تتعـذر دلائلها لأنها أملا مـن الله يعلن بها الكتـاب المقدس. ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾ (الممتحنة 08).

أوليس في هذا كفاية فيما يشهد لحسن مقاصد الإسـلام حيث أنه لم يحاش من عموم البشر إلا المحارب في الدين؟ هلا يصلح هذا أن يعد من جميـل خصاله مـن جهة إطلاقه في المـودة والبرور إلا مـا استثنى؟ وربما ذلـك المستثنى تشمله مودة الإسلام القولية على مـا يقتضيه شمول اللفظ ﴿**وقولوا للناس حسنى**﴾ (البقـرة 83). وهـل هـذا الأمـر سعـة الصدر؟ فليتأمل.

وأمـا مـودة الإسـلام لأهـل الكتـاب بالخصوص، يعنـي الإسرائيليين والمسيحييـن، فهي من شعاره والكتاب أعدل شاهد. فإنه نص على مودتهم

بـكل معنى ولفظ وألزمنـا بمودتهم ولو في حال الجـدال: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتـاب إلا بالتـي هي أحسـن**﴾ (العنكبوت 46) ؛ ﴿**قل يـا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**﴾ (آل عمران 64).

أوليـس هذا من الملاطفة في أقصى غاية؟ وأكبر شاهد فعل النبي عليه السـلام مع أهل الكتاب فـي معاشرتهم ومواصلتهم، فـكان يعود مرضاهم ويشيـع جنائزهـم ويـأكل ذبائحهـم، وأبلـغ مـن هذا جـواز نـكاح الكتابية واعتبارهـا كالحرة المسلمة من جهة النفقة والقسمة وسائر حقوق الزوجية مـع تقريرها علـى عقائدهـا وعوائدها، وهل لا يعـد هذا مـن التسامح في أقصـى غاية حيـث أذن الإسلام للمسلم أن يرتبـط بالأجنبية ارتباط مودة ورأفـة ورحمة حتى صارت الزوجة الكتابية مـن مدخول هاته الآية الكريمة: ﴿**ومـن آياتـه أن خلق لكم من أنفسـكم أزواجا لتسـكنوا إليها وجعـل بينكم مودة ورحمـة إن فـي ذلـك لآيات لقوم يتفكـرون**﴾ (الـروم 21). أوليس هذا ما يدل علـى حسن مقاصد الإسلام مع من سواه عموما ومع أهل الكتاب خصوصا؟ وهـل يوجـد أيها الصديق نص صريـح عند علماء أهل الكتـاب أو رهبانهم يؤذن بمودة المسلم والمحافظة على عوائده وعلى فرض وجوده؟ فهل أخذوا بطـرف من العمل به ؟ فإن الإسلام لمثل ذلك في احتياج ﴿**إن الله لا يضـيع أجر من أحسن عملا**﴾ (الكهف 30).

أمـا ما قدمناه من المودة هو مع أهل الكتـاب عموما ثم للمسلمين مودة مـع المسيحيين بالخصوص حتـى كاد الإسلام أن يتخذهـم بطانة. ولو لم نـدر ما هي نظرة المسيحييـن الآن في الإسلام والمسلميـن، أما أسلافهم المعاصـرون للنبـي عليـه السلام فقـد أنبأنا علـى مودتهـم للمسلمين فلا نتـردد في حصولها منهم: ﴿**لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾ (المائدة82).

فقد أثنى تعالى في حقهم بما أفاد وجود مودتهم للمسلمين. أما مودة الإسلام للمسيحيين فقد كانت أبلغ من مودة المسيحيين لهم، والذي يشعرك بذلك هو ما حصل للمسلمين من التغابن عندما انتصر فارس على الروم في عصر النبي عليه السلام، حتى أخذ سبحانه وتعالى في تسليتهم بنفسه ووعدهم بانتصار الروم على فارس في أقرب زمن. ﴿**ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (الروم 1-5).

فانظر بارك الله فيك أيها الصديق كيف أخبر القرآن بفرح المسلمين بانتصار المسيحيين على المجوس ثم انظر كيف حقق الله أمنيتهم في قوله «بضع سنين»! أيا ترى يفرح المسيحيون الآن بما يعود على الإسلام بشبه انتصار أم...؟ وأما دعوة الإسلام لمن سواه من الأمم من جهة اعتناقه، فقد كانت بألطف ما يكون وعليها بنيت دعائمه. ولولا تضييق المشركين عليه لما التجأ لحد السيف البتة. ومن تتبع الكتاب المقدس يجد خلاف ما كان في حسبانه من حسن الملاطفة في الدعوة إلى الله، وإليك شرعه لنبيه في كيفية بث النصائح: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ (النحل 125)

فهذا هو صنيع الإسلام الذي كان يجريه مع كل ذي ذوق سليم، حتى قامت في وجهه الأراذل تسعى في تعطيله بكل مكر وخديعة بحيث أضمروا له كل سوء، فجزاهم بما أضمروا جزاء وفاقا.

وفي ظني أنه لو وصل إلى بلاد أوروبا على صفته الخاصة التي هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لاستغنى بذلك العنصر النبيه عن معالجة جفوة مشركي العرب وصلابة أحبار اليهود. ومن سوء الحظ

أنــه لم يصل إلى حــدود أوروبــا إلا بالسيف، فكان ذلك المانــع الوحيد من تلقــي مبادئه والنظر في مقاصده بأطيــب نفس، لأن أهل أوروبا ليسوا بأبعد مــن نحو فارس وغيرهم عن إجابته بل نراهــم أسرع انقيادا وإلى الآن أظن جميلا والله المستعان.

وأمــا حكــم الإسلام في أهــل الذمة فربما يتبادر خلافــه في اعتقاد من ليــس لــه اطلاع والحالــة أنه بريء مــن كل رذيلة تدنسه ونقــول تغير صفاء وده الــذي اعتده مــع الأجانب فضلا عمن في ذمتــه، ولكن لا تتم الحجة في هــذا الباب إلا بالشاهد العدل والسنة أعــدل شاهد وتوازرها سيرة الخلفاء الراشديــن مع من فــي ذمتهم، وفي ظني أن الخليفــة الثاني السيد عمر بن الخطــاب رضــي الله عنه أشد وطأة من بقية الخلفــاء فيما يظهر. ولما كان الإسلام حاكما بمقتضاه عليه وعلى غيره، فانظر أيها الصديق نص ما كتبه وعهــد به نصارى الشام عند احتلاله لمدينة إيليــا أي بيت المقدس، يظهر لــك ما هي سريــرة الإسلام وعلانيته، حتى لا تروعــك أقوال المبطلين مما يرمون به الإسلام والمسلمين. وهذا نص المكتوب:

«بســم الله الرحمــن الرحيــم هذا مــا أعطى عبــد الله أميــر المؤمنين عمــر أهل إيليا مــن الأمان: أعطاهم أمانــاً لأنفسهم وأموالهــم ولكنائسهم ولصلبانهــم ومقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقــص منها ولا مــن حدها ولا من صلبانهم ولا شــيء من أموالهم، ولا يكرهــون علــى دينهــم ولا يضار أحد منهــم ولا يسكن بإيليــا معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن [...]»

فــي هذا الكتاب عهد اللهو ذمته وذمة رسوله عليه السلام وذمة الخلفاء وذمــة المؤمنيــن إذا أعطوا الذي عليهــم من الجزية. شهــد على ذلك من الصحابــة رضــوان الله عليهــم خالد بــن الوليد وعمــرو بــن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان.

وفـي ظني أنه نص كاف في نفي ما يتوهم أو يعتقد في الإسلام من شدة الوطـأة وعـدم الرأفة على من تسلـط عليه حسبما صرح بـه غير واحد من المتوهميـن. ويا سبحـان الله وأي رأفة أرأف من الإسـلام بأهل ذمته ! ولو لـم يرد في المحافظة علـى حقوقهم إلا مجرد قول النبي عليه السلام: «*من آذى ذميـا أنا خصيمه يوم القيامة*» (أبو داود 2654) لكان لهم بذلك الشأن الأرفع والحصن الأمنع: وأي منقبة أرفع ممن يكون النبي يخاصم من يؤذيه يـوم القيامـة ؟ أيا ترى هل يسمع كلمة شبه هته الكلمة ممن يدعي أنه يعطي للإنسانية حقها؟ !

وربمـا يقـول القائـل أن فـي أمـراء الإسلام من لـم يعمل بمـا قررتموه فـي النازلـة؛ فأقـول أن المرتكـب خلاف مـا ذكـر مسئوليته تعـود عليه لا علـى الإسلام، ونحن نتكلم فيمـا يقتضيه الدين لا فيمـا يحتمل خلافه من المتدينيـن، ونستدل بمن عمله حجة على غيره كالخلفاء الراشدين. أما من يتق الله في عباده من بقية الأمراء فقد كفانا النبي شره بقوله: «أنا خصيمه يـوم القيامة»؛ إذ لا تهديد أبلغ من هـذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وبهذا يتضح ما ينسب إلى الإسلام من القسوة والجفاء هو من الزور والتحمل لا غير، ولكل نعمة حسود.

وأما الإسـلام ومعاملاته من حيث الفتوحات والحروب ونعني بها مسألة الجهـاد التي اعتبرتها أوروبا من أهم غوائـل الإسلام. وما هي في الحقيقة إلا عبـارة عـن توسيع نطـاق العمران: فـكان الإسلام يرى مـن نفسه أهلية لمثـل ذلك كما تعتبره الأمم المتمدنة الآن من نفسها. وإلاّ لأي وجهة أبيحت الفتوحـات إلـى أوروبـا على مدنيتهـا الحاضرة ولـم تبح للإسـلام في أول شبيبته حيث كان للأمم المتوحشة كالغيث النافع والتاريخ أعدل شاهد؟ أما الآن فطـور آخر. ﴿**وتلك الأيـام نداولها بين الناس**﴾ (آل عمران 140). وكل هذا يعلمه من مارس أحوال الإسلام وما هو عليه.

لـو تأملت أيها الصديق فـي الشرائع الغابرة من جهة مـا يتعلق بأحكام الجهاد، لوجدت أحكام الإسلام في ذلك أجل من أن تلمز أو يشار لها باليد. وهـا أنا أنقل لك ما ربمـا أنت على خبرة منه والغرض تمحيص الحق: ﴿**قل هاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾ (آل عمـران 93). وهذا نصا في العهد العتيق ذكر في سفر الاستثناء من التوراة:

«*وإن دنوت إلى قرية لتقاتلها ادعوهم أولا إلى الصلح ؛ فان قبلت وفتحت لـك الأبـواب، فكل الشعـب الذي بهـا يخلص ويكونون لك عبيـد يعطونك الجزيـة ؛ وإن لـم تـرد تعمل معـك عهـدا أو تبتـدئ بالقتال معـك فقاتلها أنـت. وإذا أسلمهـا الرب إلهك بيـدك اقتل جميع ما فيها مـن جنس الذكر بفـم السيـف دون النسـاء والأطفال والـدواب ومن كان فـي القرية غيرهم واقسـم للعسكر الغنيمة بأسرها وكل من سلـب أعداءك الذي يعطيك الرب إلهـك، وهكذا فافعـل بكل القرى البعيدة عنك جـدا وليست من هذه القرى التـي ستأخذهـا ميراثـا. فأمـا القرى التـي تعطى أنـت إياها فـلا تستحي منهـا نفسا البتة ولكـن أهلكهم إهلاكا كلهم لحد السيـف الحيثي والآموري والكنعانـي والفـرزق والحوانـي واليابوسى كما أوصاك الـرب إلهك*» (سفر الاستثناء : 10-20).

فهـل سمعـت أيهـا الصديق أو وجـدت في الشـرع الإسلامي مـا تشاك لهاتـه الأحكام بحيـث يودي في إزهاق نفوس الأبرياء مـن النساء والأطفال والضعفـاء ومن ليس لـه إربة في المحاربة مثل ما رأيتـه في العهد العتيق ؟ ولسـت بمعترض علـى الشرائع الإلهية مهما ثبتـت نسبتها لله عز وجل؛ وما ذكرت هذا إلا لتعلم تسامح الإسلام بالنظر لغيره من الشرائع. وفي ظني أن المنصف إذا كان على علم من أحكام العهد العتيق في هذا الموضوع لا تتأتى لـه تهمة الدين الإسلامي بحال. أما الجاهـل المتعصب لا تعتد به العقلاء. وبالجملـة إن كل ما حمل على الإسلام هو على غير علم من مقاصده أو مال به الغلو عن مركز الاعتدال.

ولعلك أيها الصديق تتشوف لشيء من أحكام الجهاد، فأقول أن الإسلام يدعو الكافرين بألطف أسلوب: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾؛ فإن حصل المطلوب فذاك ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ (الحجرات 10). فإن أبوا فيطلبون بالصلح على الجزية وتعقد عهود يجب على المسلمين الوفاء بها ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**﴾ (النحل 91)؛ يعصمون بذلك أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم حسبما تقدم في عهد عمر لأهل إيليا.

وإن أبوا يقاتلون مع مراعاة ما تقتضيه الإنسانية من النهي عن التمثيل وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان وكل من لا أهلية له في المحاربة. وكتب الفقه في هذا الموضوع أعدل شاهد حتى أنه لا تجدن قانونا استحسنت أوروبا تخصيصه بهذا الشأن إلا والإسلام فيه أغرق ومنها أشفق. وكيف لا والله تعالى يقول لنبيه: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء 107). ثم إذا نبشت الحرب بين الفريقين يكون الإسلام في جميع ذلك إلى الصلح أميل: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾ (الأنفال 61).

* * *

على ضوء هذا المقتطف من رسالة الشيخ أحمد العلاوي الموجهة إلى قارئه الفرنسي، يتجلى لنا البعد العالمي للإسلام في أجمل صورته. نستنتج أيضا أن النص القرآني، وخلافا لأقوال أولئك الذين يعملون على تقديمه كمرجع للعنف الديني والإرهاب الدولي، يدعو عكس ذلك إلى علاقة سلام وأخوة بين الثقافات.